نشأة فن المسرح في العالم القديم بين المصريين والإغريق

The Emergence of Theatre Arts in The Ancient World Between the Egyptians and The Greeks

أ. د/ عبد الغفار شديد

الأستاذ بقسم تاريخ الفن - كلية الفنون الجميلة - جامعة حلوان

Prof. Abd-Elghafar Shedid

Professor at the Department of Art History - Faculty of Fine Arts - Helwan University

أ.د / محمد توفيق

الأستاذ بقسم العمارة - كلية الفنون الجميلة – جامعة حلوان

Prof. Mohamed Tawfiq

Professor, Department of Architecture - Faculty of Fine Arts - Helwan University

الباحث/ عمر المعتز بالله محمود بسيوني

ماجيستير تاريخ الفن -كلية الفنون الجميلة بجامعة حلوان

Researcher / Omar El-Moutaz Bel'lah Mahmoud Bassiouny

Faculty of Fine Arts – Helwan University- Master in Art History

omar.elmoutaz@gmail.com

الملخص:

يتناول البحث معضلة أسبقية انتساب فن المسرح لبلاد الإغريق على حساب مصر القديمة. فإن ازدهار المسرح والدراما في بلاد اليونان لا يعني أن البداية الأولى للمسرح كانت بداية اغريقية، فقد وجد المسرح في بعض الحضارات القديمة التي سبقت الحضارة اليونانية القديمة. وان كان قد اتخذ شكلاً مغايراً للمسرح كما عرفة الإغريق ليس من المعقول ان تكون تلك الأعمال المسرحية العظيمة التي عرفها الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد هي البداية الأولى لهذا اللون من الفن. أو أنه لم تسبقها مراحل أخرى. ولكن العقل والمنطق والقراءات الفنية للأثار تستبعد بشكل عام ان تكون الإنسانية التي حققت الإنجازات العلمية والفنية المذهلة في مصر القديمة قد عجزت عن اكتشاف الدراما والمسرح وأنها عاشت بدون مسرح الى ان جاء الإغريق فحققوا ما أخفقت فيه مصر القديمة في تحقيقه. ان لفن المسرح بوجه عام تصورات أخرى عديدة تعبر بشكل خاص عن فكر وعقيدة الثقافات والشعوب القديمة وخصوصاً في مصر القديمة، وعليه، فإنه يجب أخذ هذه الأشكال والتصورات في الاعتبار، إذا نحن أردنا الإحاطة بفكرة المسرح وتاريخه وفلسفته ومقوماته والدور الدي يلعبه في حياة الفرد والمجتمع، وعلى ذلك فإن أي محاولة لإرجاع المسرح والدراما الى الإغريق دون غيرهم، والتمسك بفكرة الأصل الإغريقي للمسرح، وإنكار وجود المسرح في حضارة مصر القديمة والمجتمعات الأخرى السابقة على الإغريق إنما تصدر كلها عن نظرة ضيقة لا تخلو من التحيز لكل ما هو غربي. فإن الانحياز الكامل الى فكرة الأصل الإغريقي للدراما والمسرح هو في أخر الأمر، لقدرة الإنسان على الترفيه عن نفسه، وذلك على أساس أن المسرح هو أداة للترفيه بقدر ما هو وسيلة للتعبير.

الكلمات المفتاحية:

مسرح – مصر القديمة - الإغريق – دراما

Abstract:

The research deals with the dilemma of the primacy of the affiliation of theater art to the Greeks at the expense of the ancient Egyptian Civilization. The flourishing of theater and drama in Greece does not mean that the first beginnings of the theater were Greek, as theater was found in some ancient civilizations that preceded the ancient Greek civilization. And if it had taken a different form of theater as the Greeks knew, it does not mean that those great theatrical works that the Greeks knew in the fifth century BC were the first beginnings of this type of art. But reason, logic and artistic readings of antiquities generally rule out that humanity which achieved amazing scientific and artistic achievements in ancient Egypt was unable to discover drama and theater and that it lived without knowing the core fundamentals of theater arts until the Greeks came and achieved what ancient Egypt failed to achieve. The art of theatre in general has many other conceptions that express in particular the thoughts and beliefs of ancient cultures and peoples, especially in ancient Egypt. Therefore, these forms and perceptions must be taken into account if we want to understand the idea of theater, its history, philosophy, components, and the role it plays in the life of the individual and society. Accordingly, any attempt to return theatre and drama to the Greeks alone, adherence to the idea of the Greek origin of theatre, and denying the existence of theatre in the civilization of ancient Egypt and other societies prior to the Greeks, all come from a narrow view that is not without prejudice to everything that is Western.

KEYWORDS:

Philosophy - Ancient Egyptian Art – Egyptology – Art

المقدمة:

تشكل الهوية المسرحية تأصيلاً، وهويتاً، وخصوصيتاً، مصدر قلق للمشتغلين بالفن المسرحي بشكل خاص والمهتمين بتاريخ الفن بشكل عام. فبالرغم من ان أول صفحات التأريخ لهذا الفن تنسبه الى اليونان القديمة إلا أن نشأته الأولى والريادة فيه كانت وبلا شك على أيدي المصريين القدماء؛ كفن له تقاليد، ومميزات، وفعاليات خاصة تتم بأساليب اداء محددة، وفي أوقات معينة، ومناسبات معلومة. إلا أن فن المسرح قد أخذ شكلاً جماهيرياً مختلفاً على يد الإغريق، وتبلورت عناصره وترسخت لتخدم فكر وتوجه المجتمع الإغريقي السياسي الذي كان محور اهتمامه قضايا الإنسان ومصيره، وثورته لتغيير قدره وما يتكبده من معاناة مستمرة في سبيل ذلك في صراعه مع الآلهة طبقاً لأساطيرهم الدينية، والتي تغلب فيها الإنسان على تلك الآلهة في الكثير من الأحيان. ويميل معظم الكتاب الذين درسوا تاريخ المسرح الى البدء بالمسرح عند الإغريق. فقد بلغت التراجيديا في بلاد اليونان القديمة قمة ازدهاراها في القرن الخامس ق.م.، في اعمال (أسخيلوس)، و(سوفوكليس)، و(يوربيدس)، كما عُرفت الكوميديا في اعمال (أريستوفانس) وغيره.

فالمسرح – بالمعنى الواسع للكلمة – هو شكل من أشكال التعبير عن المشاهر والأفكار والأحاسيس البشرية، ووسيلته في ذلك "فن الكلام" و "فن الحركة" مع الاستعانة ببعض المؤثرات الأخرى المساعدة. وليس هذا تعريفاً للمسرح، لأنه ليس هناك تعريف واحد متفق عليه من الجميع، وذلك بالرجوع الى المعجم وقواميس المسرح التي توضح التباين والاختلاف في تعريفاته، رغم كل ما يبدو عليه من بساطة في مفهومه.

فعلى سبيل المثال في "معجم مصطلحات الأدب" يقدم تفسيراً للمسرح على انه:

البناء الذي يحتوي على وجود ممثل/مؤدي، في مكان مرتفع عن السطح من خشب، وقاعة النظارة/المشاهدين وقاعات أخرى للإدارة واستعداد الممثلين/المؤديين لتأدية أدوارهم.

الإنتاج المسرحي لمؤلف معين أو عدة مؤلفين في عصر معين. فيقال مسرح توفيق الحكيم بمصر، أو مسرح شكسبير في إنجلترا، أو المسرح الكلاسيكي بفرنسا في القرن السابع عشر.[١]

بينما نجد من الناحية الثانية قاموس أوكسفورد الوسيط يقدم لنا سبعة مفاهيم لكلمة "مسرح" مع بعض التعريفات السريعة التي لا تخرج في مجملها عما يذكره مجدي وهبه في معجمه. وتذهب دائرة المعارف البريطانية الى ان "فن المسرح" يكاد يقصر اهتمامه على العروض الحية التي يكون فيها الفعل موجها بدقة وتخطيط محكم نحو خلق إحساس منسق وعميق بالدراما.[٢]

وكلمة "دراما" في أصلها اليوناني تعني الشيء المؤدى أو تعني الأداء بشكل عام، في حين تعني كلمة "تياتر" مكان المشاهدين، ثم أصبحت تعني المشاهدين أنفسهم، ثم تدرج معناها ليصبح العمل المسرحي ذاته.[٣]" كما عُرفت الدراما بأنها اصطلاح يطلق على أي موقف أدبي ينطوي على صراع ويتضمن تحليلاً له عن طريق افتراض وجود شخصين على الأقل: أو بأنها مجموعة من مسرحيات تتشابه في الأسلوب أو المضمون وهي شكل من أشكال الفن القائم على تصور الفنان لقصة تدور حول شخصيات تتورط في أحداث معينة، وهذه القصة تحكي نفسها عن طريق الحوار المتبادل بين الشخصيات ويمكن عملياً تقديم قصة بهذا الشكل في عرض صامت خال من الحوار. والفن الدرامي بشكل عام هو الذي تكون فيه الكلمات وسيلة للتعبير عن أفكار الأشخاص الذين تخيلهم الكاتب، وباستعمال الكلمات وحدها يخلق لها الكاتب الدرامي حبكة وشكل وهدف تلتزم بالخلفية التراثية والزمان والمكان المناسب للأحداث، أما عن الحديث الدرامي فهو لا يقتصر على التعبير عما يجري بين الشخصيات بل يتولى توضيح الأفعال التي تقوم بها تلك الشخصيات في حدود العالم الدرامي الذي يتخيله الكاتب كما ان العلاقة الدرامية صراع لا يقتصر على علاقة الشخصيات ببعضهم البعض فحسب بل يمتد الى علاقتهم بالقوى المختلفة المحيطة بهم.[٤]

وفي ضوء كل هذه الاعتبارات المتعلقة بصعوبة الوصول الى تعريف واضح وصريح وقاطع لفن المسرح، لا يحق أن نؤرخ لهذا الفن فقط منذ ظهوره المتعارف عليه عند الإغريق، وننكر بذلك على الشعوب والثقافات الأخرى التي سبقت الحضارة الإغريقية معرفتها بهذا الفن وعلى رأسهم الحضارة المصرية القديمة. بل لا يحق ايضاً ان نقصر وجود فن المسرح على الشعوب والمجتمعات التي بلغت درجة معينة من التقدم الحضاري والثقافي وننكر يذلك على الشعوب والمجتمعات التي اصطلح على تسميتها بالمجتمعات البدائية معرفتها بهذا الشكل من الفن، فلطالما ذهب الإنسان للتعبير عن ذاته ومشاكله بالتعبير الفني الجسدي ان كان امام افراد قبيلته او امام الآلهة في السماء.

هدف البحث:

التأريخ الفني لنشأة فن المسرح في العالم القديم، وتأصيل وجوده في الحضارة المصرية القديمة قبل الحضارة اليونانية على عكس ما هو سائد ومتّبع.

فروض البحث:

من المتوقع رصده من هذا البحث أسبقية وجود فلسفة الدراما في المعتقدات الدينية المصرية والحياة العامة على حدٍ سواء ووجود التطبيقات العملية لها في مصر القديمة مما يعطى الأسبقية للحضارة المصرية على حضارة بلاد اليونان في التأصيل لفن المسرح في العالم القديم.

أهمية البحث:

ترجع أهمية البحث لتعرضه بالاستقراء التحليلي لما خلفته الحضارة المصرية القديمة من موروث فني من عمارة وتصوير ونحت، وموروث ثقافي من أدب ونصوص بهدف تأصيل نشأة فن المسرح كمنتج حضاري مصري وليس يوناني على عكس ما هو سائد ومتعارف عليه حتى الآن من حقائق تقليدية وتعاليم موروثة. فالغرض الذي يسعى الباحث وراءه هو تقديم الأدلة الفنية على ان حركة الرقي البشري الذي انتجت منظومة الفن المعبر للأخلاق والقيم والحضارة قد نشأت في مصر واخذت تتطور وتتكامل من بعدها في حضارة اليونان وما تلاها من حضارات، وان الواجب يقتضي بأن نجعل ما لتلك الحقائق الجديدة من أهمية بل وضرورة مُلحة لتكون نقطة مضيئة جديدة تُعيد الفضل للحضارة المصرية التي علمت البشرية فن الحياة والخلود.

منهج البحث:

اختار الباحث المنهج التأريخي- الوصفي التحليلي الاستقرائي.

نشأة فن المسرح في العالم القديم

ان فن المسرح في نشأته قديم قدم الإنسان، مثله مثل باقي الفنون المعبرة عن حال الإنسان تماما. فقد كان الإنسان البدائي يمارس أشكالاً مختلفة من الأداء المسرحي في طقوسه العقائدية، فيمثل الإنسان مشهداً للصيد ليجعله طقساً سحرياً يُمكنه من السيطرة على الصيد أو الحصول عليه، فالرغبة في الامتلاك لإشباع شهوة الجوع أو الانتصار في الحروب جعلته يستخدم هذه الوسيلة ظناً منه ان "التمثيل" يمكنه من النجاح في الحصول على ما يريد، ربما لعقيدة متصلة بأرواح الأجداد أو الارتباط في ذهنه بقوى غيبية ممثلة في سحر الأداء الذي يقوم به لتيسير سياق الأحداث المستقبلية كما يسردها من خلال ما يؤديه من تعبير مسرحي، وربما تغيرت هذه الطقوس المسرحية فيما بعد، وتحولت الى شعيرة من شعائر الطقوس الدينية لتقدم بين أيدي الآلهة لرغبة أو دفعاً لرهبة[٥]

إذاً فمن الممكن القول بأن المسرح بالمعنى المتعارف عليه اليوم قد حقق أول "ازدهار" جماهيرياً حقيقي له في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد ابان عصر الجمهورية اليونانية، وذلك بسبب تطويع هذا النوع من الفن لخدمة التوجه المجتمعي في هذا الوقت. وعليه فإن الدراما الكلاسيكية في تلك الفترة هي في الحقيقة نوع من أنواع (التجويد) لشكل المسرح والاحتفالات والشعائر الدينية في مصر، وخاصة وأن الذين كانوا يقومون بالأدوار في تلك المناسبات – أي الممثلين – كانوا من الكهنة ورجال الدين، وبعض رجال الدولة، والعديد من الفنانين المتخصصين في هذا النوع من الفن.

لذلك نستطيع القول بأن العنصر الدرامي في الشعائر الدينية أو في العبادة العامة المألوفة التي تقوم بها مجموعة دينية ما طبقاً لتقاليدهم المعينة هو أحد اسس البناء المسرحي، هذا البناء الفني الذي يعبر عن عنصر الصراع الذي هو حلقة الاتصال او الخيط الذي يربط الإنسان بمسعاه كما يربط أجزاء القصة أو الحكاية المسرحية، وعليه فقد قدم فن المسرح للإنسان عنصراً فنياً تتشابك فيه عناصر التعبير التشكيلية لتصوير هذا الصراع الإنساني في الحياة بين الرغبة في البقاء وعناصر الفناء المتمثلة في تلك القوى التي تعترض الإنسان في طريقه وتعوق خطاه أو تحطم ما بناه أو تشده وتجاذبه.[٦]

وكما يذكر آرثر ايفانز: "إن دين كريت لعصر ما قبل الاسرات، وأوائل عصر الاسرات في مصر قد تم إثباته بكم هائل من الدلائل الاثرية"، بل إن الحضارة المصرية قد أثرت على حضارة بحر إيجة في الألف الثالث قبل الميلاد؛ لذلك لا أحد يستطيع أن ينكر على مصر فضل إسهامها الحضاري في الأدب والفلسفة التي قامت عليها الحضارة اليونانية، وبالتالي

نستطيع القول بأن قيام المسرح بالمعنى الدقيق للكلمة، وذلك بصرف النظر عن كل تلك الاختلافات المشار اليها حول تعريف المسرح كانت نشأته في الأساس مصرية مثله كمثل باقي الفنون التي عبرت عن كينونة الإنسان.

ومن هنا اختلفت الآراء والتقديرات حول تاريخ ظهور فن المسرح كنوع من أنواع التعبير الأدبي والفني في مصر القديمة، فـــ "إيتين دريتون"* كتب كتاباً يعد من أهم الكتب حول هذا الموضوع، ونقله الى العربية الدكتور ثروت عكاشة، يرد ظهور المسرح المصري الى حوالي ٣٢٠٠ قبل الميلاد، وشاركه في هذا الرأي العالم الألماني "زيته" وان كان هناك من العلماء والمؤرخين من يرون ان ظهور المسرح كان بعد ذلك بقليل أ حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وهذا الاختلاف طفيف ولا يغير شيئاً فيما يتعلق بمعرفة المصريين القدماء لفن المسرح، وانه وجد عندهم منذ حوالى خمسة ألاف عام على أقل تقدير. وبذلك يمكن اعتباره أقدم شكل للعروض المسرحية أو الأداء الدرامي التعبيري الذي عرفها التاريخ. وذلك قبل أن يظهر المسرح الإغريقي بوقت طويل.[٨]

نشأة المسرح الإغريقي

يرجح التاريخ المتداول أن أقدم أشكال الدراما الملحمية المؤدة التي عرفها الغرب هي المسرحيات اليونانية وعلى رأس تلك النصوص الدرامية ملحمتي الإلياذة والأوديسة لـــ "هوميروس". فالتاريخ يثبت ان حروباً قد حدثت بين بعض القبائل في أسيا الصغرى حيث توجد مدينة "طروادة" أو "ايليون" عاصمة "داردانيا"، وتقول الأسطورة اليونانية أن سبب هذه الحروب هو أن "باريس" ابن ملك "طروادة" قد هرب مع "هيلانة" زوجة ملك "سبارتا" فقام أهالي "سبارتا" بملاحقتهما لاسترجاع ملكتهم والثأر لشرف ملكهم وذلك بمساعدة بعض ملوك المدن اليونانية الأخرى وعلى رأسهم الملك "أجاممنون" الذي وكلت اليه قيادة الجيوش اليونانية كلها. وتصور ملحمة "الإلياذة" ما حدث لهذا الجيش من عوائق ومخاطرات، كانت الهاماً لعدد كبير من الشعراء والكتاب في انتاجهم وخاصة شعراء وكتاب التمثيل الذين اتخذوا من هذه الحوادث مادة خصبة لمسرحياتهم.

أما ملحمة "الأوديسة" فهي تصور عودة أبطال حرب "طروادة" الى بلادهم وغضب أحد الآلهة على بطل من أبطال اليونان العائدين من الحرب اسمه "أوديسيوس" وكان معروفاً بالدهاء الذي كان سبباً في انتصار اليونان في حرب "طروادة" ولذلك سميت الملحمة باسمه. وقد قيل ان هناك تشابهاً قوياً بين قصة الأوديسة وقصة "الملاح التائه" من الأدب المصري القديم؟ ولذلك يذهب بعض العلماء الي ان "هوميروس" – مؤلف الإلياذة والأوديسة – قد تأثر بالأدب المصري القديم. ومهما يكن من شيء فإن الإلياذة والأوديسة كانتا المصدر الأول لمعظم أو كل الأدب المسرحي الخاص بالتراجيديا.[١٠]

وعلى الرغم من ذلك فلا يزال العلماء مختلفين اختلافاً تاماً في شخصية "هوميروس" نفسه، فالشعر الذي ينسب اليه، وكل اثاره الأدبية، لا تعطينا أي دليل أو إشارة الى مولده أو نشأته، أو مسقط رأسه بل حتى عن حقيقية شخصيته. وكل ما اتفق عليه اليونانيون الأقدمون انه كان ضريراً وينتقل من مدينة الى أخرى ينشد قصائده متكسباً، ومعه الته الموسيقية. ويذهب البعض الآخر الى التأكيد بأن الذي انشد "الإلياذة" والأوديسة" لا يمكن ان يكون شخصاً واحداً لما بينهما من اختلافات جوهرية في الأسلوب والموضوع وتصوير الحياة الاجتماعية مما يقطع بأنها وضعت في عصرين متباعدين.[١١]

الدراما وتطورها في المسرح الإغريقي

تنطلق نظرية أرسطو في الدراما من فكرته عن المحاكاة كما تمثلها كتاباته، وهو ان كان قد اخذ فكرته عن المحاكاة من أفلاطون، الا انه جعل المحاكاة للشخصيات والانفعالات والأفعال. فالشعر -فيما يرى أرسطو- محاكاة لأشياء طبيعية مثل الموسيقى والرسم وتختلف في وسائل المحاكاة وفي موضوعها وفي طريقتها. أما فيما يختص بالوسائل، فإن الرسم يحاكي الأشياء بالألوان والرسوم، والموسيقى تحاكي بالأصوات ايقاعا وانسجاما، أما فنون النثر والشعر فإنها تحاكي بالكلام، ومنها

ما يستعين مع الكلام بوسائل الفنون الأخرى من ايقاع ولحن ووزن كالتراجيديا والكوميديا مثلما اتجهت العروض المسرحية عند اليونانيون الأوائل في أول ظهورها بين جدران معابدهم كشكل من أشكال التقرب للآلهة بعرض ملامح الصورة للأسطورة الدينية لهم، فيما هو واضح من تأثر مما قد شاهدوه وسمعوا عنه في مصر القديمة سبقته من صور المسرح المصري القديم في العديد من الاحتفالات المختلفة في ساحات المعابد حيث كانت تؤدى بعض الطقوس الدينية في قالب درامي تمثيلي "مسرحي" بهدف عرض ملامح من الأساطير والمعتقدات المصرية كأسطورة "إيزيس" و"أوزيريس"، وانتصار "حورس" على "ست".

لم تبدو صور الصراع الدرامي واضحة في بداية ونشأة المسرح اليوناني، حيث كان في بادئ الأمر يكتفي فقط بعرض الأسطورة الدينية أو حكايتها بواسطة الممثلين الذين يجسدون صور الآلهة أو البشر، وبعدها تحول الأمر شيئاً فشيئاً على أيدي رواد المسرح اليوناني إلى قواعد معروفة يلتزمها كتاب المسرح. وقد بدء المسرح الإغريقي بالمزج بين الإنشاد والتمثيل، حيث لعبت "الجوقة"* لما تختزله من تأثيرات إيجابية ناجمة عن مفهوم الجماعة الممارسة لأحوالها الطقسية دوراً هاماً في ذلك المسرح، حيث كانت تقوم في أغلب الوقت بتأدية دور الرأي العام أو المشاهدين المعلقين على الحدث المؤدى بينما يقوم الممثل/الممثلون بتشخيص وتأدية الأدوار الرئيسية أمام الجمهور. وعليه فقد كان المسرح الإغريقي على اختلاف أشكاله من مأساة وملهاة قريباً من شكل الأوبرا الذي نعرفه اليوم، لأنه يجمع الغناء بالموسيقى والرقص.[١٢]

بذلك بدئت الخطوات التي قطعتها الدراما اليونانية تنضج شيئاً فشيء إلى أن أصبحت قواعد ثابته ونماذج يحتذى بها وبعناصرها مع الثالوث التراجيدي الأشهر في تاريخ المسرح الإغريقي وهم "أيسخيلوس، و"سوفوكليس"، و"يوربيدس".

المسرح المصري القديم

لقد تجلى في الأدب المصري القديم بوضوح عنصر "الصراع" الذي هو الأساس الذي تقوم عليه الدراما، والتي هي بدورها هي العنصر الأساسي المحرك للمسرح، فنرى القصة الأشهر في الأدب المصري القديم وهي قصة "مقتل اوزيريس" على يد أخيه "ست"، ومن بعدها قصة صراع "حورس" ابن "اوزيريس" ووريثه الشرعي مع عمه "ست" على حكم مصر. حيث تبلورت واستمرت تيمة الصراع بين الخير والشر، والحياة والموت، والجبر والاختيار، والجريمة والعقاب كعنصرين أساسيين في ديمومة الحياة عند المصري القديم، ومن ذلك نستطيع ان ننطلق في القراءة الفنية لتلك الأدلة ومدلولها السينوغرافي من تطبيقات عملية للمسرح المصري القديم الذي مهد لهذا الفن عند اليونان.

يُرجع عالم المصريات الفرنسي "إيتين دريتون" ظهور المسرح في مصر القديمة إلى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، ويشاركه في هذا الرأي العالم الألماني "كورت زيته"، في حين يرى العالم الآثري "روسن" أن المسرح قد ظهر في مصر حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد. وأياً كان التاريخ الذي يتباحثون فيه وفي دقته فهو في كل الأحوال يشير الى ان ميلاد المسرح في مصر حدث منذ قرابة خمسة الاف عام أو يزيد، أي انه يعد الأقدم في العالم القديم إذا ما قورن بظهور المسارح العالمية الشرقية منها والغربية. ومن الأدلة على تلك النظريات ما كتبه المؤرخ الإغريقي "هيرودوت" في القرن الخامس قبل الميلاد عن المسرح المصري القديم، حيث أشار في كتاباته إلى قيام "كهنة" مصر القديمة بطقوس دينية فيما وصفه بـــ "العروض التمثيلية"، استمدوا فيه قصصهم من الأحداث الدرامية في الديانة المصرية القديمة، مما يذكرنا بالمسرح الكنسي الذي استمر من القرون الوسطى وحتى يومنا هذا في شتى بقاع العالم، والذي يقوم على إعادة لتمثيل أحداث مختلفة من قصة حياة السيد المسيح ومسيرته. لكن "هيرودوت" لم يذكر أو يسق شاهدِا على ما كان يحدث في تلك "العروض المسرحية" تفصيلاً، ولكن اكتفى فقط بذكر استناد تلك العروض على قصة "إيزيس" و"أوزيريس"، فـــ "اوزيريس" رب الخير والحياة يدخل في صراع مع اخيه "ست" إله الشر والفناء، وينتصر الشر في بادئ الأمر بمقتل "اوزيريس"، ولكن "حورس" ابن "اوزيريس"

ووريثه الشرعي على عرش مصر ينتقم لأبيه في تتضافر بينه وبين امه "إيزيس" التي قدمته لمجمع الآلهة في حركة تصحيح انتصارا للحياة والخير والنظام على الشر والفوضى، فيما يؤكد على أن قدماء المصريين قد عرفوا فن صناعة الدراما التي بدونها ما استقام المسرح.

اسطورة مقتل اوزيريس

تتلخص تلك الأسطورة التي هي عمق القصص الدرامي في ديانة المصريون القدماء على ان "اوزيريس" قد تزوج من اخته "ايزيس" وأنه ظل يحكم مصر بالعدل وكان رفيقاً برعيته، متفانياً في خدمة شعبه والعمل على تحسين احواله، حيث يقوم دائماً بالتجارب لاكتشاف أفضل سبل زراعة الأرض وزيادة المحصول، والاستفادة مما تجود به الطبيعة من نبات وحيوان وطيور في إنتاج الطعام والشراب والكساء، فهو بذلك الذي علم المصريين فنون الزراعة واستغلال مياه النيل، وتحديد فصول السنة والمواسم الزراعية وفقاً لدورة الشمس، فأحبه شعبه وقدسه واعتبروه مصدر الخير للجميع، مما أثار عليه حقد أخيه "ست"، فدبر له أمراً للتخلص منه ودعاه وسط اعوانه الى وليمة كبيرة، وأحضر تابوتاً فخماً بديع الصنع قائلاً انه يهديه لمن يستطيع التمدد فيه. وحاول بعض ضيوف "ست" التمدد في هذا الصندوق لكنهم لم يتناسب طولهم مع ابعاد هذا التابوت الذي قد صنعه ست خصيصاً ليناسب جسد أخيه دون ان يفصح عن ذلك. فلما جاء دور "اوزيريس" ليتمدد فيه سارع "ست" واعوانه إلى اغلاق التابوت عليه بإحكام وألقوا به في نهر النيل. وتروي الأسطورة بعد ذلك رحلة "إيزيس" في البحث عن هذا التابوت المحبوس فيه زوجها وكيف استطاعت ان تعثر عليه وتعيده، غير ان "ست" كان لهما بالمرصاد ونجح مرة ثانية في الإيقاع به لكي يتخلص منه نهائياً هذه المرة فقتله ومزق جسده وفرقه على مقاطعات مصر. ولكن "ايزيس" بحثت عنه مرة أخرى دون كلل واستطاعت ان تجمع اشلاءه، وردت اليه بسحرها الحياة للحظات في احراش الدلتا لتحمل منه في ابنهما "حورس"، ليعود "اوزيريس" بعدها مرة أخيره للموت لكن ليعيش مرة آخرى ملكاً يحكم العالم الآخر ويقيم العدل فيه إلى الأبد.

اخفت "ايزيس" وليدها "حورس" في أحراش الدلتا بعيداً عن الأنظار حتى يشتد عوده، وكان يساعدها في تربيته "جحوتي" رب الحكمة والأسرار الذي علم "حورس" المعارف والفنون، وشارك "ايزيس" في تنشئته على حب الخير والعدل مثل ابيه، كما علمه ايضاً كيف يكون شجاعاً قوياً وصارماً مع اعداءه. ولما نضج "حورس" وأصبح فتياً خرج من مخبئه، ودفعته أمه ومعلمه "جحوتي" للانتقام لأبيه من عمه "ست" الذي اغتصب عرش "اوزيريس" ونشر في البلاد الفساد والظلم والظلام.

مثل هذه الأسطورة كان لها عظيم الاثر في نفوس المصريون القدماء، فهي من أسس العقيدة وبالتالي فهي تحمل العظات الكهنوتية التي تساعد المصري على ان يعيش حياته كـــ -"اوزيريس" حتى ينعم بالراحة والأبدية عند الانتقال إلى العالم الآخر. وفي ضوء ذلك كان على عاتق كهنة المعبد إيصال مثل هذه القصص والترويج لها بين عامة الشعب في جميع انحاء مصر، حتى ينعم الشعب بالموعظة، وينعم الكهنة بتعميم المعتقدات الدينية وضمان تبعية الشعب دينياً وعقائدياً للمعبد وعبر ذلك سياسياً للحاكم. وعليه فيرجح العلماء ان هذه الدراما كانت تؤدى كـــ "عروض مسرحية" داخل المعبد أحياناً وأحياناً أخرى كانت تخرج خارج جدرانه كنوع من الدعاية الإبداعية ليستمر العرض لثلاثة أيام متتالية مثله مثل احتفالات عيد "الأوبت"، حيث ينتقل موكب العرض من مكان الي مكان للبحث عن "جسد اوزيريس" الذي قُطع اثنان وأربعون قطعة، وفي كل مكان يظن انه به جزءاً من جسده تقوم معركة بين مجموعة من المؤدين يقومون بتمثيل دور أعوان "ست" وآخرون يقومون بتمثيل دور أعوان "اوزيريس". ويستمر العرض ليروي للمشاهدين مآثر "ايزيس" و"أوزيريس" و"حورس" و"جحوتي" أبطال هذه الملحمة الدرامية والمخاطر التي تعرضوا اليها وتضامنهم الذي أنقذهم من مخاطرها، وغير ذلك من التفصيلات التي وردت بصورة رمزية في المسرحيات المصرية المستوحاة من تلك الأسطورة، التي بُنيت على النماذج

الأساسية للقيم التي عرفتها الإنسانية. وأخيراً، ومع انتهاء العرض يتم تجميع جميع قطع جسد "اوزيريس" كلها لكي تعود الحياة فيه مرة آخرى وسط وفرح وتهليل الجمهور المنتظر لهذه النهاية السعيدة الذي ينتصر فيها الخير على الشر.[١٣]

مسرحيات الأسرار المصرية

ما من شك ان المسرح ولد بالمعبد، ولكن حضارة مصر القديمة كلها نبعت من الدين، فالمعبد كان حين اذن مأوى للأسرار، بل اكاديمية للبحث العلمي، وكان يسمى "بيت الحياة". وكان الكاهن ساحراً وطبيباً وحكيماً، لأنه كان يعلم ما يخفى على غيره من اسرار العلم والكون. وفي المسرح الديني كان الكاهن يقوم بدور المخرج والمؤلف، ويوزع الأدوار على الممثلين الذين يتقمصون شخصيات الآلهة، ويدعو للحفل عاهل المملكة والشخصيات المرموقة، ممن يعرفون الأسطورة ويفهمون كنهها ومغزاها، فيطلعون- دون سواهم – على "اسرار" ايزيس التي أتت بالمعجزات، "واللام" اوزير الذي دفع حياته ثمناً لرخاء مصر ووحدتها، وانتصار حورس على الظلم والطغيان. تلك كانت الموضوعات الرئيسية التي انبثقت منها كل المسرحيات المصرية القديمة العروفة.

سمحت العقيدة المصرية القديمة للكهنة بالقيام بالطقوس الجنائزية التي تمثل بدورها نوعاً من الأسرار الدينية التي كان لا يطلع عليها إلا الكهنة أنفسهم لأنها ارتبطت بالإله "اوزوريس"، وكانوا يقيمونها بشكل طقسي ومسرحي في عدة معابد وعلى الأخص معبده في "أبيدوس" حيث كان يحج اليها المصريون القدماء. فهناك نص من الأسرة الثانية عشرة يصف قتالاً على سطح بحيرة بين "اوزريس" وأعدائه، ويمثل المنظر مرسى منطقة "أبيدوس" حيث يتم تصوير موت الإله ودفنه، ثم يعقب ذلك انتصاره وعودته ليطرد أعدائه، الأمر الذي أشار الى وجود شعائر دينية ذات طبيعة مُحجّبة يجري فيها إحياء ذكرى العثور على جسد "اوزوريس" الذي تعرّض إلى خديعة من شقيقه "ست" الذي قام بقتله وتقطيع أوصاله ونثرها في البلاد، فما كان من أخته وزوجته "إيزيس" إلا البحث عنه وتجميع تلك الأوصال وإعادتها للحياة مؤقتاً لتتصل به جنسياً فتلد منه ابنه الإله "حورس" الذي لم يسلم هو الآخر من شر "ست"؛ فأرسل له عقرباً ليلدغه وهو نائم لكن "حورس" قام بالاهتداء إليه وقتله، فتبكيه "إيزيس" بكاءً مرّاً، فيرق لحالها الإله "جحوتي" وزير إله الشمس وإله الحكمة والكتابة. ويكبر "حورس" ويخوض معركة شرسة ضد "ست "وأعوانه فينتصر عليه ويعيد عرش ابيه "أوزوريس".[١٤]

ومثل هذا النوع من المسرحيات قد استمر من بعد الحضارة المصرية عبر التاريخ فقد انتشر ولاقى رواجاً كبيراً منذ القرن العاشر الميلادي وحتى القرن السادس عشر ليعالج أحداثاً مستمدة من الإنجيل في آلام المسيح، وكذلك موضوعات مستمدة من حياة القديسين. وكانت هذه المسرحيات تمثل في الأصل باللغة اللاتينية، ثم من بعد بالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية . وقد تطورت هذه المسرحيات واتسع مجالها، فصارت تمثل خارج الكنائس، وزادت في الموضوع والتنوع، وأضيفت إليها موضوعات غير دينية، فنشأت عنها المسرحيات الأخلاقية ومسرحية الآلام، التي ظلت حتى العصر الحديث.

بردية المتحف البريطاني (رقم ١٠١٨٨)

نتعرض هنا لبردية من أهم البرديات التي تساعدنا على فهم المغزى الدرامي والمسرحي من اسطورة مقتل زوزيريس وكيف انها قد تكون بالفعل قد مُثلت أمام الجمهور في مصر القديمة. بردية المتحف البريطاني (رقم ١٠١٨٨) هي بردية مكتوبة بالخط الهيراطيقي، محفوظة في سجلات المتحف البريطاني تحت اسم "بردية برمنر رند"، وهي غير مخصصة للعرض المتحفي، وتنتمي البردية الى اخر من كان يمتلكها وهو كاهن من طيبة يدعى "نس.مين" من العصر البطلمي (حوالي ٣٠٥ قبل الميلاد) حيث وجدت ضمن مقتنياته الجنائزية، ولكن يُرجح انها تنتمي لعصور سابقة عن هذا العصر. فقد كُتبت البردية في الأساس لتكون ضمن مجموعة مخطوطات دينية خاصة بأحد المعابد. وتحتوي البردية على أربع موضوعات منها:

طقوس استحضار الإله "سوكر"، طقوس الإطاحة بالثعبان "أبيب" رمز الفوضى والدمار، أغنيات "إيزيس" و"نفتيس"، وخاتمة.[١٥]

شكل (١) بردية (برمنر رند) رقم ١٠١٨٨ في المتحف البريطاني

كُتبت أغنيات "إيزيس" و"نفتيس" في هيئة ابيات قصيرة مما يُرجح انها بغرض الإلقاء الثنائي "ديالوج" وليس الغناء على وجه التحديد، ويرجع ذلك ايضاً للعنوان المصاحب لتلك الأبيات وهو "الأبيات الشعرية لاحتفال الحدأتان" (The Stanzas of the Festival of the Two Kites)، وهو يشبه النص السابق في بردية برلين، ولكنه يتخذ بُعداً تراجيدياً ومأسويا أكثر منه.[١٦] ومن الملاحظات الهامة في هذا النص هو انه يحتوي على الدلالات والمعايير التي يجب ان يتم بها اختيار شكل وهيئة المؤدين "الممثلين"، مع إرشادات لشكل (الأزياء)، و(تسريحة الشعر)، و(الإكسسوار) الازم لهم:

"تختار فتاتان عذراءتان ظاهرتان الجسد، قد حُف شعر جسديهما وزين رأسهما بشعر مستعار (باروكة) وتمسك كلياهما بدُف في يدها، ويكتب على كتف احداهما "ايزيس"، وعلى كتف الاخرى "نيفتيس"، وتغنيان مقطوعات هذه الكراسة في حضرة الإله."

كانت هذه التلاوات بغرض الإلقاء الثنائي "ديالوج" في معبد "اوزيريس" في الفترة من اليوم الثاني والعشرين وحتى السادس والعشرين من شهر كيهك (من ١٠ ديسمبر حتى ٨ يناير)، مما يؤكد على انها كانت من ضمن أجزاء "مسرحيات الأسرار" الخاصة بطقوس الاحتفال بعيد "اوزيريس" في هذا الشهر، والذي هو جزء اصيل منها نحيب الأختان الإلهيتان على موت "اوزيريس".[١٧]

النتائج:

لقد اظهر البحث معرفة المصريون القدماء بفن الدراما وتطبيقاته من خلال فن المسرح.

تأصيل فن المسرح في مصر القديمة، قبل معرفته واستخدامه لدى اليونان والرومان.

لم يقتصر فن المسرح في مصر القديمة على جمهور النخبة فقط بل شاع بين الناس.

نبع فن المسرح في مصر القديمة من الأساطير الدينية المرتبطة بفهم المصريين لنسق الحياة، والموت، والخلود.

تأكيد انه كان لفن المسرح أصول وقواعد في اختيار الممثلون وأماكن العرض لتأكيد الدلالة الدينية.

استغل المصريون القدماء فن المسرح لنشر وتأصيل وتثبيت العقيدة الدينية لدى جموع الشعب المصري، وكان للمسرح دوراً كبيراً من خلال التطبيق العملي للدراما المصرية القديمة.

التوصيات:

إن المسرح في مصر القديمة أحد أهم تطبيقات فهم منظور المصري القديم للديانة والمعتقد، ومن الواجب الاهتمام بإجراء العديد من الأبحاث لرصد سماته وقواعده وتطبيقاته في مصر القديمة من خلال الأدلة الأثرية كترجمة بصرية للمعتقد الديني.

الإهتمام بالتعريف والترويج لفن المسرح في مصر القديمة من خلال البحث الأثري، ومن القراءة الفنية والتحليل التشكيلي وربط فن المسرح بطبيعة المصريين ومفهومهم للديانة المصرية القديمة في المقررات الدراسية بالكليات الفنية المتخصصة نظراً لما يحمله الفن المصري القديم من عمق في الفلسفة المترتبطة بالدين والحياة مما جعله يؤثر على المنتج الفني للحضارة المصرية القديمة على مر العصور وعلى باقي الحضارات التي تلتها.

المراجع

<u>المراجع العربية:</u>

اسمن، يان: الذاكرة الحضارية، الكتابة والذكرى والهوية، السياسية في الحضارات الكبرى الأولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. ٢٠١٣

Assmann, Yann: AlZaakira Alhadaria, Alkitaba WalZikraa Walhuia, Alsiyasia fi Alhadarat Alkubraa Al'awa, alhay'a Almisriat Aleama Lel kitab, alqahira. 2013.

برنال، مارتن: أثينة السوداء (الجذور الأفروآسياوية للحضارة الكلاسيكية) الجزء الأول، تلفيق بلاد الإغريق (١٧٨٥-١٩٨٥)، تحرير ومراجعة وتقديم: د. أحمد عتمان، ترجمة لفيف من العلماء، المشروع القومي للترجمة، القاهرة.١٩٩٧

Bernal, Martin: 'Athina Alsawda' (Aljudhur al'afruasiawiat Lel Hadara Alkilasikiat) Aljuz' Al'awala, Talfiq bilad al'iighriq (1785- 1985), Tahrir Wamurajaeat Wataqdim: dr. Ahmad Eitman, Tarjamat Lafif min aleulama', Almashrue Alqawmii Lel tarjama, Alqahirat.1997.

ديورانت، ول: قصة الحضارة، المجلد الرابع، عصر الإيمان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دار الجيل للطبع. تونس. ١٩٨٨.

Durant, Wil: Qisat Alhadarat, Almujalad Alraabieu, Aasr Al'iimani, Almunazama Alearabiat Lel Tarbia Walthaqafa Waleulum Dar Aljil Lel Tabei. Tunus. 1988.

زكري، انطون: الأدب والدين عند قدماء المصريين. المتحف المصري. ١٩٩٢

Zikri, Anton: Al'adab Aaldiyn eind Qudama' Almisriiyn. Almuthaf Almisrii. 1992.

صالح بك، مجيد، تاريخ المسرح عبر العصور، الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠١

Saleh Bek, Majid, Tarikh Almasrah Abr Aleusur, Aldar Althaqafia Lel Nashr, 2001.

عبد الرحيم، محمد، المسرحية بين النظرية والتطبيق، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٩٦٦.

Abdelreheem, Mohhamad, almasrahia Bayn Alnazaria Aaltatbiq, Aldar Alqawmia Lel Tibaea Walnashri, Alqahira, Masr, 1966.

محمد حسين محمد حبيب، م.م. ياسر عبد الصاحب براك: الأشكال ما قبل المسرحية ومرجعياتها الأنثروبولوجية،جامعة بغداد، ٢٠١٣

Mohamed Hussien Mohamed Habib, Yasser Abdalsaahib Brak: al'ashkal ma qabl almasrahia Wamarjieiaatiha Al'anthurubulujia, Jamieat Baghdad, 2013.

ويلكنسون، ريتشارد هـ.: قراءة الفن المصري، دليل هيروغليفي للتصوير والنحت المصري القديم، وزارة الثقافة، المجلس الأعلى للآثار. ٢٠٠٧

Wilkinson, Richard. H.: Qira'at Alfan Almisrii, Dalil Hirughlifi Lel Taswir Walnaht Almisrii Alqadim. Wizarat Althaqafat, Almajlis Al'aelaa Lel Athar. 2007.

يحى، لطفي عبد الوهاب، المسرح الشعري، عالم الفكر، الكويت المجلد١٥، العدد ١سنة ١٩٨٤

Yehia, Lutfi Abd Alwahaab, Almasrah Alshieri, Alam Alfikr, Alkuayt Almujalad 15, Aladad 1 Sanat 1984.

المراجع الأجنبية:

Breasted, James Henry; 1916, A History of the Early World, Ginn and Company, Boston

David, R. Religion and Magic in Ancient Egypt. Penguin Books, 2003.

Faulkner, R.O. A Concise Dictionary of Middle Egyptian. Griffith Institute, Ashmolean Museum, Oxford, 1962.

Mykola, Tarasenko, 2016. Studies on the vignettes from chapter 17 of the Book of the Dead. I, The image of mś.w Bdšt in ancient Egyptian mythology (Archaeopress Egyptology 16), Oxford. 2016

Wahby, Magdi: A Dictionary of Literary Terms, librairie du Liban. Beirut. 1974

---

[١] Wahby, Magdi: A Dictionary of Literary Terms, librairie du Liban. Beirut. 1974, p.567.

[٣] يحى، لطفي عبد الوهاب، المسرح الشعري، عالم الفكر، الكويت المجلد١٥، العدد ١سنة ١٩٨٤، ص١٨

[٤] حسين رامز، رضا، الدراما بين النظرة والتطبيق. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٢، ص٢٨

[٥] زغلول، محمد، المسرح والمجتمع، منشأة المعارف، ١٩٨٨، ص٥

[٦] المسرح والمجتمع، ص٤

[٧] عتمان، أحمد: مقدمة كتاب مارتن برنال: أثينا السوداء، الجزء الأول، ٣٦.

[٨] نشر الأب دريتون كتابه عن "المسرح المصري القديم" عام ١٩٣٨، ثم لحقه بعد ذلك بسنوات بمقال عام ١٩٥٤ يكمل فيه ما ذكره في الكتاب. وقد نشر المقال في مجلة تاريخ المسرح La Reveud Histoire du Theatre ويقول الدكتور عادل سلامة في المقدمة التي كتبها لترجمته لمسرحية (انتصار حورس) التي نقلها عن الترجمة التي قام بها عن الهيروغليفية هـ. و. فريمان: "وقد أثبت دريتون في كتاباته بما لا يدع مجالاً للشك، أنه كان هناك مسرح مصري ناضج مكتمل العناصر. وأن هناك عدداً لا بأس به من النصوص المسرحية قرب المتناول مع شيء من الجهد. ووضع الأسس في كتابه هذا لوسائل البحث في سبيل اكتشاف المزيد من النصوص المسرحية والمعلومات حول المسرح المصري القديم.

[٩] قصة الملاح التائه؛ هي أحد اعمال الأدب المصري القديم التي ترجع الى حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، والتي تنتمي الي عهد الدولة الوسطى، وتدور حول رحلة إلى "مناجم الملك". تحتوي البردية التي اكتشفها عالم المصريات الروسي فلاديمير جولينشيف ونشرها عام ١٩١٣على القصة وهي محفوظة في المتحف الامبراطوري في سان بطرسبرج. تجسد القصة مشاعر الوحدة والخوف من الموت في بلد أجنبي، وهو موضوع تكرر في الأدب المصري. وتدور القصة حول الملاح الذي يعود من رحلة استكشافية ويقص على الوزير قصة اصطدام سفينته بجزيرة ولم ينج سواه.

[١] عبد الرحيم، محمد، المسرحية بين النظرية والتطبيق، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٩٦٦، ص٨و٩.

[١] المسرحية بين النظرية والتطبيق، ص٩

* الجوقة أو الكورسChoir هي عبارة عن مجموعة من المطربين والمغنيين الذين يقدمون فن غنائي أو عزف آلات موسيقية، أو دور تمثيلي مؤلف ومكتوب موسيقياً تحت إشراف وتوجيه من مخرج العرض

[١] المسرح والمجتمع، ص٨و ٩.

[١] صالح بك، مجيد، تاريخ المسرح عبر العصور، الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠١، ص٣٦-٣٩

[١] **محمد حسين محمد حبيب، م.م. ياسر عبد الصاحب براك: الأشكال ما قبل المسرحية ومرجعياتها الأنثروبولوجية، جامعة بغداد، ٢٠١٣، ص٤٣**

*"أون.نفر" من القاب "اوزيريس"

[١] المرجع السابق، آيتين دريتون: المسرح المصري القديم، ص١٧

[١٦] Mykola, Tarasenko, 2016. Studies on the vignettes from chapter 17 of the Book of the Dead. I, The image of mś.w Bdšt in ancient Egyptian mythology (Archaeopress Egyptology 16), Oxford, 2016. p. 5.

[١] Faulkner, Raymond O.: The Papyrus Bremner-Rhind. Bibliotheca Aegyptiaca III, Edition de la foundation Egyptologique, Brussels, 1933.